والإنترنت والفيديو كليبات، العربية والأجنبية.

وربما يكون في هذا بعض عوامل تساعد على فهم الانتفاضات العربية القائمة حولنا: انهيار خطابات سابقة لا تزال معتمَدة رسمياً، ومبنية على مسائل الهوية الجماعية والقضايا الوطنية الكبرى، الأمر الذي يفسح المجال أمام الشباب كي يبحثوا عن تعبيرات عن مسائلهم الفردية. بيد أن بحثهم هذا لا يستطيع أن يكون حراً، بل إن النظام الاجتماعي والأخلاقي، يدفعهم إلى المساومات والمفاوضات، بينما تتسع الشقة بين ما يتيحه لهم العالم الافتراضي والقراءات الرقمية، وما يتيحه لهم الوضع الاجتماعي والرسمي المحيط بهم. وما يقوم به الشباب الآن في أنحاء العالم العربي ربما يكون بالضبط تحويل شفرة الفضاء الرقمي إلى العالم الواقعي، وكذلك المطالبة بتوسيع حدودهم من الحرية والفردية، مستعينين بما اكتسبوه من قدرة على تشبيك الأفراد والحوار والنقاش والبحث في مواجهة قوى لم تعد تعبّر عن زمنهم.

وفي الختام، تجدر الإشارة إلى نصّين في هذا الكتاب يبرران الحفاوة به ويدعمان الدعوة إلى قراءته بودّ وامتنان، وهما نص رشا الأمير "الخيل بفرسانها" (ص ٢٠٣)، عن تجربتها مع دار الجديد، ونص أحمد بيضون البديع في صوغه كما في رسالته إلى كل منا: "لا تندم على شيء قرأته" (ص ٢٠٦).

فادي العبد الله
كاتب لبناني

من قبضة بن علي إلى ثورة الياسمين: الإسلام السياسي في تونس

مجموعة من الباحثين

تقديم محمد الحداد

دبي: مركز المسبار للدراسات والبحوث، ط ٢، ٢٠١١. ٣٨٦ صفحة.

جاءت الثورة التونسية في مطلع سنة ٢٠١١ بمثابة خروج عن قانون سعى لتفسير التاريخ وفقاً للانقسامات العمودية، العرقية والدينية والطائفية، وهيمن على محاولات فهم أحداث العالم منذ نهاية الحرب الباردة على الأقل.

وقد طرحت الثورة التونسية أسئلة صعبة حاول أنصار الانقسامات العمودية الرد عليها بمقولات من نوع توزّع الشعب التونسي على حساسيات "الداخل والساحل"، أو الشمال والجنوب، وأشاروا إلى عودة الروح إلى ظاهرة "العروش القبلية" بعد أحداث بلدة المتلوي في حزيران/ يونيو الماضي.

ويمكن القول إن هذا الكتاب يوفر أداة مهمة للتعرف إلى خلفيات عمل التيارات الإسلامية في تونس في الفترة التي سبقت سقوط الرئيس زين العابدين بن علي في شباط/ فبراير ٢٠١١.

وقد تلخّص الهمّ الذي حرّك مقدّم الكتاب، محمد الحداد، في سؤال عن معرفة إمكان تحقيق تغيير عميق وجوهري في تونس من "دون أن تسقط في الثالوث المعتاد: انقلاب عسكري أو تدخل أجنبي أو فوضى عارمة"، على أن يبقى رهان النموذج التونسي "هو ألاّ ينتهي عاجلاً أو آجلاً إلى سيناريو إيراني أو سيناريو جزائري" (ص ٨ – ٩). والسبيل الذي سار فيه الحداد كان في الحفر في تاريخ "الإسلام السياسي" في تونس مستعيناً بدراسات عدد من الكتّاب والسياسيين المهتمين أو المنتمين إلى الحركة الإسلامية التونسية بمختلف أطيافها، فبعضهم ينتقد الحركات الإسلامية، وبعضهم الآخر قريب منها. وتعود أكثر هذه الدراسات إلى سنة ٢٠٠٨، أي قبل

ثلاث سنوات من سقوط بن علي، بيد أن ذلك لا يحرمها راهنيتها، وخصوصاً مع تمحور الحركة السياسية في تونس قبيل الانتخابات التشريعية المقررة في تشرين الأول/أكتوبر المقبل، حول الإسلاميين، ولا سيما حركة النهضة التي يفرد الدارسون لها حيزاً مهماً في كتاباتهم، والتيار السلفي الذي يعالج الكتاب أيضاً أصوله وتاريخه.

ويجمل الكتاب المسائل المنهجية التي تواجه البحث في مسألة "الإسلام السياسي" عامة، عبر تساؤلات على غرار: ما هي الخصائص الفكرية للحركات الإسلامية التونسية، وما هو معنى وجود تيار إسلامي سياسي في بلد بدا كأنه قطع شوطاً بعيداً في مسارات العلمانية؟ ولا يخفي عدد من الباحثين اعتقادهم أن الحركة الإسلامية التونسية تبدو متقدمة على غيرها من الحركات المشابهة في بلاد عربية أخرى، لناحية قبولها بالتعددية السياسية والخيار الديمقراطي وبتداول السلطة، بيد أنها تبقى متأخرة قياساً بالمجتمع التونسي في مسائل العلاقات الأسرية والأحوال الشخصية وحقوق المرأة التي تحققت عبر المرحلة البورقيبية (١٩٥٧ – ١٩٨٧) وفترة حكم بن علي (١٩٨٧ – ٢٠١١) التي ترسخت فيها القيم العلمانية.

من جهة أخرى، يذهب بعض الدراسات إلى التساؤل عن الأوضاع التي أتاحت عودة الظاهرة الإسلامية إلى تونس على الرغم من القبول العام للخيارات العلمانية على النسق البورقيبي. وبينما يهمل الكتاب حالات التدين التقليدي والتدين الجديد غير السياسي لأسباب منهجية، فإنه يركز على الدور الذي أدته مجموعة من الشبان التونسيين بدأت اجتماعاتها في نهاية ستينيات القرن الماضي وبداية سبعينياته، عندما كانت تونس تبحث عن مخارج سياسية واقتصادية من أزمة فشل التجربة الاشتراكية. وكانت هذه هي الخلفية التي خرجت منها نواة "الجماعة الإسلامية" التي أسست في وقت لاحق حركة "الاتجاه الإسلامي" التي غيرت اسمها في مطلع الثمانينيات إلى حركة "النهضة"، استجابة للقانون الذي يحظر الأحزاب الدينية.

وتحتل "النهضة" بقصة نشوئها، وبالقمع الذي تعرضت له، وبمصائر قادتها، وبالفصل الخاص بالسيرة الشخصية والفكرية لزعيمها راشد الغنوشي، بقلم عبد التواب عبد الله، وبخلافات قادتها والتجاذبات الفكرية والسياسية التي مرت بها وبهم، قسماً مهماً من الكتاب. ولا عجب، فإن هذه الحركة جسّدت لبّ الجدل التونسي بين الهوية والحرية، مقدمة نموذجاً للتعامل الأخلاقي والسياسي بعيداً عن ذلك الذي حاولت السلطات تعميمه، فضلاً عن أنها استفادت من غياب مرجعية دينية مناظرة ذات صدقية (احميدة النيفر، ص ١٠٢). والبحث عن الهوية في ظل حكم عمم فكرته عن العلمانية والانتماء إلى الحداثة بواسطة آليات الدولة التسلطية الأبوية، جعل من الإسلام ومن حركة النهضة خاصة، ملجأ لكل متشكك في المسار الذي تسير تونس فيه.

وساهم انضواء اليسار في الصراع إلى جانب بورقيبة وبن علي ضد الإسلاميين، على الرغم من جميع الخلافات التي تفصل بين قوى اليسار والسلطة، في إضعاف القوة الوحيدة المنظمة التي كانت مؤهلة لتقف في وجه صعود "الإسلام السياسي"، وذلك بعدما عرف النظام كيف يستغل هواجس اليسار حيال التيار الإسلامي ويوظفها لمصلحته. وفي ذلك ما يناقض الأسلوب الذي استخدمه النظام المصري في السبعينيات بضرب اليسار الصاعد بالإسلاميين.

وفي مرحلة الثمانينيات، ظهرت جملة متناقضات بين خطاب "النهضة" التي بدت تارة مؤيدة لاقتراحات الإصلاح التي يرفعها النظام، وخصوصاً بعد "تحول السابع من تشرين الثاني/ نوفمبر" ١٩٨٧ (استيلاء بن علي على السلطة وإزاحة بورقيبة)، حين أملت الحركة بطي صفحة الصدامات العنيفة والاعتقالات التي طالت مئات من أعضائها والبدء بمرحلة جديدة، وبين العودة طوراً إلى خطاب النقد الشديد للنظام بعد انتهاء فترة الانفتاح الأولى في مستهل عهد بن علي. ويشرح عبد

الحكيم أبو اللوز هذا التناقض بأنه انعكاس لتناقضات الفاعلين السياسيين التونسيين (ص ١٤٣).

وبعدما يقدّم العجمي الوريمي قصة العلاقة بين الإسلاميين والسلطة مبيناً الأسباب التي حالت دون تولّي القوة الأبرز بينهم، قيادةَ تحول سياسي واجتماعي في تونس، يتناول مصدق الجليدي حركة "الإسلاميين التقدميين" المنبثقة من الفكر الإخواني والحاملة لبديل يأخذ في الاعتبار تناقضات المجتمع التونسي.

ويدرس صلاح الدين الجورشي الظاهرة السلفية التي ظلت على هوامش الحركة الإسلامية حتى أحداث ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١، عندما نجحت في "اختراق" تونس آتية أساساً من بلاد الخليج، على يد عدد من التونسيين الذين عاشوا هناك وتأثروا برجال الدين السلفيين، ومن دون أن تكون هذه الظاهرة امتداداً لـ "النهضة". وعلى الرغم من تعدد الجهات السلفية وتوزعها بين "جهادية" و"دعوية"، فإن سلطات بن علي لم تميز بينها في القمع، مع ملاحظة أن بعض التونسيين المقيمين في الغرب انضم إلى حركات سلفية جهادية.

أخيراً، ما من شك في أن الكتاب يشكل مادة مهمة في فهم التيار الإسلامي التونسي وتنويعاته (بما فيها التيار الشيعي الصغير)، ويغني المهتمين بمتابعة تطورات المستقبل التونسي ومصير الثورة الأولى في "الربيع العربي".

وأصحاب الدراسات هم: محمد الحداد (تقديم)؛ صلاح الدين الجورشي؛ الفاضل البلدي؛ احميدة النيفر؛ عبد الحكيم أبو اللوز؛ العجمي الوريمي؛ مصدق الجليدي؛ اعلية علاني؛ عبد التواب عبد الله؛ محمد القوماني.

حسام عيتاني
كاتب لبناني

ثورات القوة الناعمة في العالم العربي: نحو تفكيك الديكتاتوريات والأصوليات

علي حرب

بيروت: الدار العربية للعلوم ـ ناشرون، ٢٠١١. ١١٨ صفحة.

منذ أن انطلقت موجة التغيير في الدول العربية، حفل الحقل الثقافي بالمقالات والكتيّبات والكتب التي تعرض هذه الحركات الاحتجاجية المنتشرة كالنار في الهشيم، أو كالماء في أرض اليباس. وتميزت هذه الأدبيات بالوصف السريع والتحليل المبدئي من دون الخوض حثيثاً في التحليل السوسيولوجي والماكرو ـ اقتصادي والسياسي للمحفزات التي وقفت وراء تفتّح هذا الربيع العربي الواعد. فالوقت لا يتيح ذلك، كما أن الأمانة العلمية تدفع إلى الترقب والتبصر كي لا تكثر الأخطاء والاستنتاجات السريعة. وقد شعر جميع العاملين في البحث العلمي بتحدّ كبير في إبان هذه الفترة لضرورة مواكبة الحدث من جهة، ولتعارض مفهوم السرعة مع مفهوم التحليل العلمي وارتباطه أكثر بالتغطية الصحافية من جهة أُخرى، فتم الدمج بين الضرورتين كي ينتج منهما مراجعات جدية يظللها بعض مناطق الضبابية المشروعة في الإلمام بأبعاد الصورة مكتملة.

وكتاب علي حرب، أو كما يسميه المؤلف: كتيّبه الجامع لقراءات وملاحظات عدة، يأتي في هذا السياق محاولاً الإحاطة بجميع العوامل المحفزة، وبالخصوصيات المناطقية، فضلاً عن التعقيدات التي واجهها بعض المسارات.

ويركز علي حرب على دور الثورة الرقمية وأساليب الاتصال الحديثة في إحداث مجال افتراضي لخلق مساحات وميادين ومنظمات. ومن خلال تحرر الفرد من سجنه الفكري استناداً إلى "القوة الناعمة"